أبو الحسن علي الحسني الندوي

بين الجباية والهداية

قام بالنشر

مكتبة الاسلام ، گوئن روڈ ، لكناؤ ـ الهند

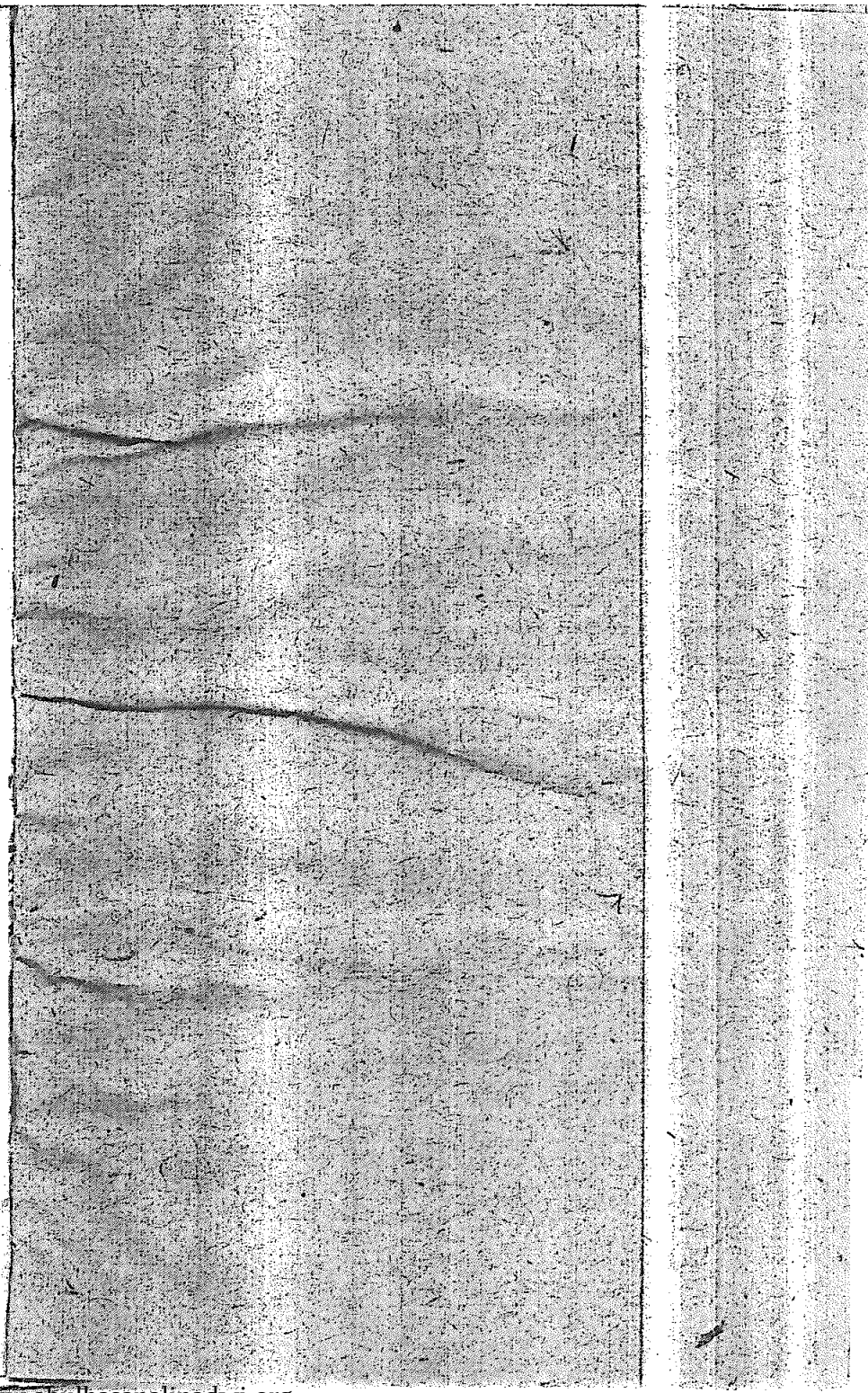

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الجباية والهداية

الدول والحكومات قسمان، دولة شعارها الجباية، ودولة شعارها الهداية، وكل لها طابع خاص ونفسية خاصة، ورجال ممتازون، ولكل نتائج متميزة.

فميزان الأشياء ومناط الأحكام فى دولة الجباية هو تضخم الميزانية وكثرة الدخل والايراد، ورفاهية رجال الحكومة واحتفال الحضارة وزهو المدنية، وإن كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء وشقاء الفلاحين والعملة والضرائب المجحفة والمكوس المرهقة، فلا يعنى هذا الضرب من الحكومة إلا بما يزيد فى مواردها وماليتها، وبما يهيء لها أسباب الفخار والزينة والأبهة وبما يهيء للامراء والوزراء وأبنائهم وأبناء أبنائهم والمتصلين بهم ورجال الحكومة وأسرهم وخدمهم أسباب الترف والتنعم والبذخ، وبما يبنون به قصورا فاخرة، ويشترون به أملاكا واسعة فى داخل البلاد وخارجها.

www.abulhasanalinadwi.org

تغفل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية والخلقية وتعطل الحسبة والرقابة على الأخلاق والنزعات وتتغافل عن كل ما ليس بسبيلها وما لا يجر عليها فائدة مالية أو قوة سياسية، وقد تبيح منكرا أو محرما إذا كانت تجنى منه نفعا وتحرم مباحا إذا كانت تخاف منه خطراً سياسياً أو خسارة مالية، ولا يزال الجشع والنهامة للمال تدفعها وتزين لها خُطتها حتى تفرض ضرائب على العبادات وعلى الموت والحياة. وهكذا تتحول من حكومة ساهرة على مصالح الجمهور وراحتهم ومن مربية وحارسة للامة إلى شركة تجارية كبيرة لا يهمها إلا جمع الأموال وزيادة الأرباح.

أما الدولة التى شعارها الهداية فمهمتها الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ومعيارها تحسّن أخلاق الجمهور وسمو روحهم وتحليهم بالفضائل وإقبالهم على الآخرة وزهدهم فى الدنيا والقناعة فى المعيشة واجتنابهم المحرمات والمعاصى وتنافسهم فى الخيرات، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها وخسارة ماليتها، فتنصب الوعاظ وترسل الدعاة وتشجع الحسبة وتمنع الخمور وتنكر على الفجور، وتحرم الملاهى والمعازف. وتطارد المستهترين والخلعاء،

وتمنع كل ما يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم، ويفسد الحياة المنزلية، وتغص فى حكمها المساجد وتُقفر الحانات، ويزدهر الدين والتقوى، وتضمحل المعاصى والجنايات، ويقوم أهل الدين والصلاح وينشطون ويتحمسون، ويتوارى الفجار والملحدون وينكمشون. ويكون ما وصفه الله تعالى «الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور».

تمتاز مضخة حكومة الهداية بأسرها عن مضخة حكومة الجباية بأسرها، تمتاز عنها فى النزعات والروح، والسيرة والمعاملة والسلوك. فترى فى الأولى التطوع والاحتساب، وروح الخدمة والايثار والأمانة والتضحية والوفاء، بينما ترى فى رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ورجاله والاجتهاد فى معاجزته والتفلت منه، والكبر والتجبر والأثرة والخيانة والنفاق والزور وفشو الرشوة إلى حد يدعو الانسان بين الركن والمقام أن لا يُبتلى بهم. فلا ينال الانسان حقه من العدل والراحة ولا يتمتع بحقوقه المدنية إلا إذا رضخ من ماله لهذا وقدم طعمة لذاك، ويستفحل الأمر ويجل الخطب حتى لا يرى أحد فى هذه الحكومة أنه خادم أمة وأمين حكومة، ولا يعد نفسه

www.abulhasanalinadwi.org

إلا جابيا — ولكن لنفسه وعياله — قد منحته الحكومة فرصة جمع الأموال فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ويتخلف عن قافلة الجباة الشخصيين وقد اشتد بها الجد وجد بها السير.

لقد سبق فى التاريخ أمثلة لكل من حكومات الجباية والهداية. أما حكومات الجباية فلا تحتاج إلى تمثيل ولا إلى شرح وبيان، فانها هى السائدة الفاشية فى الماضى والحاضر وفى الشرق والغرب، وقد جربها الانسان وعرفها فى كل عصر. أما حكومات الهداية فهى نادرة جداً، فلنضرب لها مثلا.

بعث محمد صلى الله عليه وسلم فدعا الناس إلى الاسلام فالتف حوله «فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا. هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة، لو لا يأتون عليهم بسلطان بين، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً». وكان هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة وظلم واضطهاد وبلاء وعذاب وقد قيل لهم من قبل «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». فصمدوا

لكل ما وقع لهم وثبتوا كالجبال وقالوا «هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله» حتى أذن الله فى الهجرة، ولم تزل الدعوة تشق طريقها وتؤتى أكلها حتى قضى الله أن يحكم رجالها فى الأرض ويقيموا القسط ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. فقد عرف أنهم إذا تولوا وسادوا «أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر».

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتى الأمطار بالخصب والزرع وكما تأتى الأشجار بالفاكهة والثمر، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الاسلامية، ولم تكن هذه العزة والقوة إلا نتيجة ذلك العذاب الذى تحملوه من قريش وغيرهم وذلك الهوان الذى لقوه فى مكة وغيرها.

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزة وشوكة ورجال وأموال وكنوز وخزائن وجباية وخراج ورفاهة ونعيم وكان المجال واسعاً جداً لجمع الأموال وحكم الرجال وزفاهة الحال إذا اختاروا طريق الملوك والسلاطين فى فرض الضرائب الكثيرة والاتاوات المتنوعة

www.abulhasanalinadwi.org

والمكوس الجائرة.

التفت القوم فاذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق — طريق الجباية وطريق الهداية. هنالك سمعوا هاتفا يقول «ويحكم إن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث جابيا وإنما بعث هاديا وأنتم خلفائه»، فلم يترددوا فى إيثار جانب الهداية على جانب الجباية واتخاذِ الدعوة والهداية شعارا ومبدأ لحكومتهم فكان ذلك.

لقد علموا أنهم لو آثروا جانب الجباية وأطلقوا أيديهم فى أموال الناس واسترسلوا إلى النعيم ورتعوا فى اللذات لم يحل بينهم وبين ذلك أحد ولم يقف فى سبيلهم واقف. ولكنهم علموا أنهم لو فعلوا ذلك لقد غشوا إخوانهم الذين سبقوهم بالايمان وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا ثمار غرسهم، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا إلا الجهاد والتعب والجوع والسغب، لقد وصلوا إلى الحكومة على جسر من متاعبهم وإيثارهم. أ فيجوز لهم أن يستغلوها لمصلحتهم وشهواتهم وأبنائهم وأقاربهم ويتمرغوا فى النعيم ويسرفوا فى الأكل والشرب؟ لقد ظلموا إذن عثمان بن مظعون وحمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وسعد بن معاذ وكثيرا من رفقتهم الذين لم يروا

شيئاً من الفتوح والغنائم ولم يشبعوا أياماً متوالية، وقف القوم ولم يطب لهم الأكل والشرب وأرادوا أن يلحقوا بأخوانهم ولم يأخذوا من الدنيا إلا البلاغ.

تاسست دولة الاسلام وفتحت فارس وبلاد الروم والشام ونقلت إلى عاصمة الاسلام — المدينة المنورة — كنوز كسرى وقيصر وانصبّت عليها خيرات المملكتين العظيمتين وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطرفها وزخارفها ما لم يدر قط بخلدهم، وقد انقضى على اسلامهم ربع قرن وهم فى شدة وجهد من العيش وفى جشوبة المطعم وخُشونة الملبس، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ولا من اللباس إلا ما يقيهم من البرد والحر، فاذا بهم اليوم يتحكمون فى أموال الأباطرة والأكاسرة فاذا أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى وينام على بساط قيصر لفعل، لقد كانت والله هذه محنة عظيمة تزول فيها الجبال الراسيات وتطير له القلوب من جوانحها وتعمَش له العيون، ولكنهم سرعان ما فطنوا أنهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب، بل إنهم خيروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم وإمامتهم ومبادئهم وينفضوا منها يدهم فلا يطمعوا فيها أبدا، وبين أن

www.abulhasanalinadwi.org

يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين.

كان لهم أن يؤسسوا ملكا عربيا عظيما على أنقاض الدولة الرومية والفارسية وينعموا كما نعم ملوكها وأمرائها من قبل فقد ورثوا إمبراطوريتين، الفارسية والرومية، وجمعوا بين موارد دولتين. فاذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط، وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الامبراطوريتين ويبذخ بذخا لم يبذخه أحدهما.

كان له ولأصحابه كل ذلك بكل سهولة، ولكنهم سمعوا القرآن يقول «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا. والعاقبة للمتقين». وكأنهم يسمعون نبيهم صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته «لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم». فتهافوا من آخرهم قائلين «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للانصار والمهاجرة».

وهكذا حافظوا على روح الدعوة الاسلامية وسيرة الأنبياء

والمرسلين وعاشوا فى الحكومة كرجال الدعوة، وفى الدنيا كرجال الآخرة، وملكوا أنفسهم فى هذا التيار الجارف الذى سال قبلهم بالمدنيات والحكومات والشعوب والأمم، وسال بالمبادىء والأخلاق والعلوم والحكم.

ما زال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ووصولهم إلى الشط الثانى من غير أن يصابوا فى نفس أو مال أو متاع حادثا غريبا من أغرب ما وقع فى التاريخ. إن الحادث لغريب ولكن أشد منه غرابة وأدعى للعجب أن المسلمين فى عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الاسلامية الأولى خاضوا فى بحر مدنية الروم وفارس وهو مائج هائج وعبروه ولم يفقدوا شيئا من أخلاقهم ومبادئهم وعاداتهم ووصلوا إلى الشط الثانى ولم تبتل ثيابهم، ولم يزل الخلفاء الراشدون وأمراء الدولة الاسلامية من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم محتفظين بروحهم ونفسيتهم وزهدهم وبساطتهم فى المعيشة وتخشنهم فى أوج الفتوح الاسلامية.

حكى الطبرى دخول الهرمزان المدينة ومواجهته لعمر رضى الله عنه، قال: هيئوا الهرمزان فى هيئته فألبسوه كسوته من الديباج الذى

www.abulhasanalinadwi.org

فيه الذهب ووضعوا على رأسه تاجا يدعى الآذين مكللا بالياقوت وعليه حليته كيما يراه عمر والمسلمون فى هيئته ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر فى منزله فلم يجدوه فسألوا عنه ، فقيل جلس فى المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه فى المسجد فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلددكم؟ تريدون أمير المؤمنين؟ فانه نائم فى ميمنة المسجد متوسدا برنسه ! وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة فى برنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسده فنام. فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره. والدرة فى يده معلقة ، فقال الهرمزان : أين عمر؟ فقالوا : هو ذا ! وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال : أين حرسه وحجابه عنه؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان ! قال فينبغى له أن يكون نبيا ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء. وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالساً ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : الهرمزان؟ قالوا : نعم ! فتامله وتأمل ما عليه وقال أعوذ بالله من النار وأستعين الله ، وقال الحمد لله الذى أذل بالاسلام هذا وأشياعه.

يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة. فقال الوفد : هذا ملك الاهواز. فكلمه ، فقال : لا حتى لا يبقى عليه من حليته شىء فرمى عنه بكل شىء عليه إلا شيئا يستره وألبسوه ثوبا صفيقا فكلمه[1].

ويصف ضرار بن ضمرة على ابن أبى طالب فى خلافته بعد وفاة على لمعاوية فيقول : « يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه. ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه. وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ، وكأنى أسمعه وهو يقول : يا دنيا! أ بى تعرضت أم لى تشوفت ، هيهات هيهات غرى غيرى ، قد بتتك ثلاثا لا رجعة لى فيك ، فعمرك قصير وعيشك

١ — تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢١٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

حقير وخطرك كبير. آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق[١].

كان شعار الدولة الاسلامية الأولى الهداية والدعوة إلى الله وخدمة الناس فكانت الدولة تخسر أموالا عظيمة فى سبيل الأخلاق والدين، وكانت إذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال اختارت الأرواح وخسرت الأرباح، وتطيب بذلك نفسا وتقر به عينا، وإذا كان عكس ذلك فكسبت الأموال وخسرت الرجال، حزنت لذلك وحزن المسلمون لحزنهم على ملك زائل وسلطان راحل. وقد فضل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يدخل المجوس والنصارى فى الاسلام ويعفوا من الجزية فيخسر بيت مال المسلمين مقدارا عظيما من المال ويكسب الدين الاسلامى والأمة الاسلامية رجالا يتخلصون من النار. وإذا كسب وربح بيت المال على حساب الاسلام حزنوا حزنا شديدا.

حدث الطبرى عن زياد بن جزء الزبيدى، قال: جمعنا فى مصر ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى، فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الاسلام وبين النصرانية فاذا اختار الاسلام

١ — صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١.

كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية. قال ثم نحوزه إلينا، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم[١].

وهكذا انتشر الاسلام وانتشرت الأخلاق الفاضلة فى عقود من السنين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وتغلغلت الدعوة الاسلامية فى أحشاء المجتمع البشرى، لم يتمتع العالم الاسلامى بخلافة عمر بن عبد العزيز إلا سنتين وبضع شهور ولكنه بحرصه على الدعوة ومحافظته على شعار الهداية وسيرة خلفاء الأنبياء عليهم السلام تمكن من التأثير فى القلوب والعقول، وقلب تيار المدنية وإظهار الدين وإخماد الكفر والفسق والقضاء على رسوم الجاهلية ما لم تتمكن منه دول إسلامية طويلة الأعمار لتراوحها بين الهداية والجباية وتفضيلها الجباية فى أكثر الأحيان على الهداية.

وكانت المدن الاسلامية الكبرى وعواصم الاسلام مركز دعوة وهداية بحيث إذا دخلها الانسان عرف أنه يمشى فى مركز الاسلام

١ — تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٢٧.

www.abulhasanalinadwi.org

ويتنفس فى جوه فيرى الحدود قائمة وأحكام الشرع نافـذة ، ولا يجد أحدا يتهاون فى أمر من أمور الدين ويستخف به أو يجاهر باثم ومعصية ، ولا يرى بدعة ولا فجوراً ولا دِعَارة ولا خَلاعة ، ولا يسمع برشوة ولا خيانة ولا ما ينافى روح الاسلام ، ويسمع الدعوة إلى الله وإلى الدار الآخرة وإلى الفضيلة والتقوى واتباع الكتاب والسنة والاجتناب من الشرك والبدعة والتمسك بفضائل الدين فى كل مكان ويرى العمل بذلك فى الطرقات والمجامع وبيوت الناس ودواوين الحكومة ، فيتشبع بروح الدين ويتضلع إيمانا وحماسة وفقها فى الدين ومعرفة بأحكامه وشرائعه وحبا لأهله ، فلا يخرج إلا وقد استفاد الايمان والعلم والتصلب فى الدين والثقة برجاله وممثليه ، وإذا دخلها أجنبى أو حديث عهد بالاسلام عرف مزايا الحياة الاسلامية وفضل حكومة الاسلام وآثر الاقامة فيها وكره أن يفارقها ويعود إلى دار الكفر كما يكره أن يقذف فى النار .

أما الحَرَمان فقد كانا فى دولة الاسلام — المؤسسة على مبدأ الهداية — مدرسةَ الدين ومهد الحضارة الاسلامية تتمثل فيها الحياة الاسلامية بكمالها وجمالها ويأتى إليهما المسلمون من كل ناحية من نواحى

العالم الاسلامى ومن كل فج عميق فيشهدون منافع لهم ويتفقهون فى الدين وينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم ، ويحتجون فى بلادهم بما رأوه فى الحرمين فيكون ذلك حجة لمحافظة الحجاز على الدين والسنة وحرص حكومتها على تمثيل الحياة الاسلامية فى مركز الاسلام ومنبعه .

ثم أتى على المسلمين حين من الدهر نسوا أن الحكومة فى الاسلام لم تكن إلا جائزة الدعوة والجهاد فى سبيلها . ولو لا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الله ، وما لقى فى مكة والطائف من قريش والقبائل ، ولو لا الهجرة والاختفاء فى غار ثور والرباعية المكسورة يوم أحد ، ولو لا ما صنع بحمزة يومئذ ، ولو لا قتلى بئر معونة ومصلوب الأنصار[1] لما دانت الدنيا للعرب ولا كانت دمشق ولا بغداد ، ولا كان لبنى مروان أن يجبوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيد أن يقول لسحابة مرت به « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » .

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ الجباية والسياسـة ، وأهملوا الدعوة إلى الله وإلى دار السلام وعطلوا

١ — هو خبيب بن عدى بن مالك الذى قتله بنو الحارث بن عامر وبضعوا لحمه وحملوه على جِذْعة وهو القائل :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

www.abulhasanalinadwi.org

الحدود وأبطلوا الحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، ولم تعد مراكز الاسلام مدرسة الدين ومرآة لمدنيته واجتماعه بل أصبحت تغرس الشك والنفاق فى قلوب الوافدين وتزعزع عقيدتهم وثقتهم بالدين وأهله، وأصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الاسلامى يكتسبون منها استخفافا بشعائر الاسلام ورقة فى الدين ووهنا فى العمل وسوء ظن بمثلى الاسلام، ورجعوا يحتجون بالأوضاع الفاسد فى مراكز الاسلام وبالفوضى الدينية فكانت داهية عظيمة على رجال الاصلاح والدعوة فى الأقطار الاسلامية وفتنة كبيرة.

ليس العالم الاسلامى اليوم بأشد افتقارا إلى شىء، منه إلى حكومة تمثله تمثيلا صحيحا وتقوم على أساس الدعوة والهداية والنصيحة والخدمة، فان الاسلام لا يؤثر فى عقول الناس ولا يشفى المتفحصين حتى تكون له رقعة فى الأرض تتمثل فيها حياته وتتجلى فيها مدنيته واجتماعه وتظهر فيها نتائج دعوته وتعاليمه، فاذا كان ذلك ولو فى رقعة صغيرة كان على الاسلام إقبال عظيم لم يعهد من قرون.

وليس العالم الانسانى بأقل افتقاراً من العالم الاسلامى إلى مثل

هذه الحكومة التى شعارها الهداية والاصلاح، لا الجباية والكفاح، فان الانسانية العليلة الجريحة لا يسعفها اليوم إلا قيام هذه الحكومة التى تتأسس على أساس الفضيلة والدين واحترام الانسانية، وإيثار الأرواح على الأرباح، والأخلاق على الأعلاق وكسب الرجال على كسب الأموال، فاذا تأسست هذه الحكومة — مهما كانت صغيرة ومهما كانت مواردها ضيقة — كان ذلك حادثا غريبا يستحق كل تنوية وإشادة، وقام كبار السياسيين وأصحاب اليراع وقادة الفكر يشيرون إليها بالبنان ويضربون بها الأمثال، ويؤلفون عنها مؤلفات وأصبح الناس يأوون إليها كما يأوى الغرقى إلى جزيرة فى البحر، لينعموا فى ظل حكومتها وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن ويتنفسوا من متاعب المدنية المعقدة المزورة، والحكومات الجابية الجائرة، ولكانت هذه الحكومة غرة فى جبين الدهر وشامة بين الحكومات والدول.

إن الانسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف أنواعها وأسمائها — من شخصية وديمقراطية ورأسمالية واشتراكية — فوجدتها بنات علات لا تختلف فى أصلها ومبدئها وروحها ونزعتها، وقلبتها على كل جانب فلم تر منها إلا شرا ومرا ولم تر اختلاف الأسماء يغنى

www.abulhasanalinadwi.org

عن شيء، وإذا تأسست جديدة باسم جديد نادى لسان الحقيقة فى لفظ أبى العلاء المعرى:

ألا إنما الأيام أبناء واحد ... وهذى الليالى كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة ... خلاف الذى مرت به السنوات

وإذا أضيفت إلى هذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومة جديدة لا تختلف عن أخواتها إلا أنها يرأسها مسلم أو يديرها عدد من المسلمين لم تكن بدعا ولم تكن شيئا طريفا يتوه به أو يشار إليه بالبنان، أو تعقد به الآمال. فان هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات فى طول مساحتها وضخامة ميزانيتها وكثرة إنتاجها وإصدارها وفى جيشها وأساطيلها وبوارجها الحربية وعدد الطائرات وكثرة المصانع ورقى الصناعة والتجارة واحتفال المدنية والحضارة وحسن الادارة وانتشار العلم فى طبقات الشعب وقلة الأمية إلى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الأوربية.

إن قيام دولة للمسلمين فى بقعة من بقاع الأرض فرصة سعيدة نادرة لا تسنح فى كل حين، ومثل هذه الفرص — كما يعرف المطلع على السنن الالهية وعلى تاريخ الأديان والدعوات الاصلاحية — قد

تسنح بعد قرون، وتكون من فلتات الدهر وفى قصرها كوميض البرق فى ليلة مظلمة، وتكون امتحانا عظيما لرجالها كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية وراحتهم ولذائذهم، فاذا انتهزوا هذه الفرصة وعرفوا قيمة الوقت وأحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدين الذى ينتسبون إليه وحسن ظن الناس بهم وصدقوهم فى ما يقولون فقد خدموا دينهم وأنفسهم خدمة باهرة، وإن كان غير ذلك فأساءوا استعمالها واستغلوها لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ورجالها المخلصين وجهودهم فى سبيل نشر هذه الدعوة وقيام هذه الحكومة كما فعلت الدولة الأموية والعباسية ودول كثيرة، فقد ضيعوا الفرصة وخسروا دورهم، وخسرت معهم الدعوة التى وصلت أسبابها بأسبابهم دورها، وما يعلم أحد متى يعود هذا الدور، وهل يعود أو لا؟ فقد شهد التاريخ أمما وجماعات كثيرة ضيعت فرصة حكمها وسلطانها ولم تنتفع بها وانتهى دورها القصير أو الطويل فوقفت مع المتفرجين المنعزلين وبقيت تنتظر دورها فى حلبة الأمم وتعض على تفريطها بنان الحسرة والندم.

هذا وإلى الحكومات الاسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا

www.abulhasanalinadwi.org

الفرصة ويُحرِزوا قصبَ السَّبَقِ ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم إلى حيث لا يبلغ إليه كبار الصالحين والأتقياء بعبادتهم وزهدهم، وذلك بما آتاهم الله من حول وطول ونفوذ وسلطان وفرص لا تتأتى لغيرهم، ولهم أن يصلوا فى خدمة هذا الدين وإعادة شبابه وإصلاح المجتمع وتغيير اتجاهه من الجاهلية إلى الاسلام فى يوم واحد — إذا أرادوا ذلك وصحت عزيمتهم وصدقت نيتهم — ما لا يصل إليه المصلحون والمؤلفون والعاملون فى أعوام وقرون وينالوا من رضا الله وثوابه الدنيا وحسن ثواب الآخرة ما يَغبِطهم عليه كثير من العباد والمتقين وعباد الله الصالحين. وما أُطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشد إلا بتغييره مجرى الحكومة من الجباية والهداية والاصلاحات التى قام بها وبرجولته وعصاميته فى سبيل مبدأه، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ومتاع فان، وأنواع من لباس وطعام ودواب وأنعام — كان لا بد أن يتركها يوماً من الأيام — لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع وما يرجو من مرافقة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه والالتحاق بحزبه وما جعل الله له من لسان صدق فى الآخرين لرجح ما اكتسب رجحانا واضحا وعد من كبار الأذكياء وعقلاء العالم.

www.abulhasanalinadwi.org